القيروان بوصفها أول حاضرة إسلامية في بلاد المغرب ودورها في الإشعاع العلمي

أ. د. مبارك بوطارن
المدرسة العليا للأساتذة
- بوزريعة -

الملخص:

تعد القيروان الحاضرة الاسلامية الأولى التي أسست ببلاد المغرب، فإلى جانب كونها العاصمة الدينية والسياسية لإفريقية إلى نهاية عهد الأغالبة، فهي تمثل مركز الإشعاع العلمي لها، ومنطلق الحياة الثقافية، وقد وجد بها الكثير من المؤسسات العلمية، لم تنعكس آثارها على القيروان فحسب بل تعدتها إلى الحواضر الاسلامية الأخرى في بلاد المغرب الأوسط والأقصى وبلاد الأندلس.

الكلمات المفتاحية:

القيروان؛ إشعاع علمي؛ بلاد المغرب؛ المساجد؛ المكتبات؛ العلماء.

Résumé:

Kairouan est la première métropole musulmane à s'être implantée au Maghreb, en plus d'être la capitale religieuse et politique de l'Ifriqiya jusqu' à la fin de l'ère des Aghlabides, elle en représente le centre de rayonnement scientifique, et le point de départ de la vie culturel. De nombreuses institutions scientifiques s'y trouvaient. Ses effets ne se sont pas seulement répercutés sur Kairouan, mais se sont également étendus à d'autres villes musulmanes des pays du Moyen et de l'Extrême Maghreb et des pays d'Andalousie.

Mots clés :

Kairouan; Rayonnement scientifique; Pays du Maghreb; Mosquées; Bibliothèques; Savants.

المقدمة:

كان العرب الفاتحون يغزون بلاد المغرب، فينتصرون أو ينهزمون في غزواتهم، ويعودون إلى برقة أو الفسطاط أو حتى دمشق، وقد أعاق تقدم عملية الفتح بُعْدُ خطوط المواصلات، وصعوبة الامداد من هذه الحواضر البعيدة التي كانت تزيد بُعدًا كلما توغل المسلمون في فتح أراضي جديدة غربا، الأمر الذي جعل العديد من القبائل البربرية ترتد كلما خرج المسلمون من بلاد المغرب[1]، وأول من اختار قيروانا للنزول فيه وأقام به ثلاث سنوات كاملة هو معاوية بن حديج الذي بنى معسكرا شبه ثابت في مكان يسمى القرن، حفر فيه آبارا وبنى مساكن، واتخذ مقبرة للشهداء من أصحابه، فقد ورد في هذا الصدد عند ابن عبد الحكم أنه:" اتخذ قيروانا عند القرن فلم يزل فيه حتى خرج إلى مصر" [2] كان ذلك قبل تأسيس مدينة القيروان.

لقد توصل القادة الفاتحون لبلاد المشرق والمغرب إلى قناعة أن عملية الفتح والعودة إلى عاصمة الخلافة أصبح أمرا غير مجد لنشر الإسلام والحفاظ على المناطق المفتوحة وعلى الإسلام بها، وأصبح لزاما عليهم إنشاء المدن المعسكرات على تخوم المناطق المفتوحة لتكون قواعد لتثبيت الإسلام، وقد أُنشأت لهذا الغرض في العراق البصرة والكوفة زمن الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وعرفت مصر أيضا إنشاء مدينة الفسطاط على يد عمرو بن العاص، أما بلاد المغرب فعرفت إنشاء مدينة القيروان على يد القائد عقبة بن نافع الفهري خلال خلافة معاوية بن أبي سفيان وابنه يزيد.

حث الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه ومن جاء بعده من الخلفاء المسلمين على الهجرة إلى هذه المدن الجديدة والاستقرار بها حتى تكون القلاع الحصينة التي يجد فيها المسلمون ملجأ لهم أثناء فترات الحرب والغزوات، ولكي تصبح مع مرور الزمن المنارات التي تشع بالحضارة العربية الإسلامية على المناطق المفتوحة، والمدارس التي تتدرب فيها الشعوب الحديثة العهد بالإسلام على مبادئ هذا الدين الحنيف.

إن العامل الأساسي الذي كان وراء خروج العرب من شبه جزيرتهم هو العمل على نشر الدين الإسلامي في أقاصي الأرض، وقد اعتمدوا في ذلك على خطط وتكتيكات مختلفة للوصول إلى هذا المبتغى، فمن الغزو والعودة إلى موطنهم مثلما كان ذلك في بداية الفتح إلى سياسة منظمة وأكثر نجاعة تعتمد أسلوب الاستقرار في المناطق المفتوحة، وقد أدت هذه السياسة الى توسيع رقعة الإسلام، وكان إنشاء مدينة القيروان من نتاج هذه السياسة الحكيمة.

أولا: الموقع الجغرافي للمدينة:

تقع القيروان[3] كما يذكر البكري:" في بساط من الأرض مديد، في الجوف منها بحر تونس وفي الشرق بحر سوسة والمهدية وفي القبلة بحر سفاقس وقابس وأقربها منها البحر الشرقي، بينها وبينه مسيرة يوم (وبينها وبين الجبل مسيرة يوم) وبينها وبين سواد الزيتون المعروف بالساحل مسيرة يوم، وشرقيّها سبخة (ملح عظيم طيّب نظيف) وسائر جوانبها أرضون طيّبة كريمة"، بينما يصفها الإدريسي بقوله:" القيروان أم أمصار وقاعدة أقطار وكانت أعظم مدن الغرب قطرا وأكثرها بشرا وأيسرها أموالا وأوسعها أحوالا وأتقنها بناء وأنفسها هما وأربحها تجارة وأكثرها جباية وأنفقها سلعة وأنماها ربحا... والقيروان كانت مدينتين إحداهما القيروان والثانية صبرة). "[4]

ثانيا: تأسيس حاضرة القيروان:

كان تأسيس مدينة القيروان هدفا دينيا جهاديا الغرض منه تأكيد الحكم الإسلامي على بلاد المغرب، والوقوف في وجه الأطماع البيزنطية التي كانت تتحين الفرصة للعودة إليها، وفي هذا السياق جاء مضمون الروايات التي وردت عند بعض مؤلفي المصادر الإسلامية كالمالكي والدباغ وابن عذاري متفقة في مضمونها حيث أن عقبة بن نافع قال لأصحابه عن أفريقية فيما يرويه ابن عذاري أنها بلاد عصية إذا دخلها إمام تحزم أهلها بالإسلام فإذا خرج منها رجعوا إلى الكفر، وقد فضل أن يتخذ بها مدينة يجعلها معسكرا أو قيروانا تكون عزا للإسلام الى آخر الدهر [5].

وبناء على ما سبق يتضح أن تأسيس مدينة القيروان جاء في سياق جهادي عقدي الغرض منه طمأنة نفوس المؤلفة قلوبهم إلى الدين الجديد.

لقد أيقن عقبة بن نافع من تأسيسه للقيروان أنها ستكون حرزا للإسلام والمسلمين، ومنارة علم تهدي القلوب وتمحو الضلالة، كيف لا وقد ساهم في بنائها خمسة وعشرون نفرا من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا حول عقبة وطاف بهم المدينة داعيا الله أن يملأها علما وفقها وأن يعز بها الإسلام ويمنعها من جبابرة الأرض [6].

أخلص عقبة وصحابته في الدعاء، وكانت الاستجابة عاجلة من الحي القيوم إذ سرعان ما أصبحت القيروان قلعة للجهاد ومركزا لتنوير العقل البشري في شتى العلوم النقلية والعقلية فأصبحت قبلة لطالبي العلم من مختلف أصقاع بلاد المغرب والأندلس وأفريقية السوداء، فكان من نتائج هذا الإقبال أن شاع نورها على هذه البلاد فكانت بذلك القيروان سببا في انتشار سلطان المسلمين على كل بلاد الغرب الإسلامي سياسيا وعلميا وثقافيا.

وأما عن التسلسل التاريخي لتأسيس حاضرة القيروان، فتذكر لنا المصادر التاريخية أن من أوائل من نزل بنواحي القيروان من المسلمين كان في غزوة العبادلة سنة 27هـ/648م، فابن أبي سرح كما يذكر ابن عذارى قد نزل بها مدة وضرب فسطاطه في أرضها[7]. ويذكر المالكي وابن الأثير أن معاوية بن حديج بعد أن غزا بنزرت وغنم غنائم كثيرة، رجع إلى قمونية، وبنى بناحية القرن وهو جبل قريب من القيروان مساكن للجند وسماها قيروان، وموضع القيروان آنذاك غير مسكون ولا معمور، وكان ذلك في سنة 45هـ/665م[8]

ولما تولى عقبة بن نافع الولاية على إفريقية سنة 50هـ/670م ولاحظ كثرة ارتداد البربر رأى ضرورة تأسيس مدينة للمسلمين فقال لأصحابه:" إن أفريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الإسلام فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر فأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر"، فاتفق رأيهم على ذلك، ونظر عقبة بْن نافع إلى المكان الذي بنى فيه سلفه معاوية بن حديج مساكن جنده فلم يعجبه، فتحول عنه قليلا ، وتوجه بالناس إلى موضع القيروان اليوم، وكان غيضة كَثِير الأشجار مأوى الوحوش والحيات، فأمر بقطع ذَلِكَ وَإحراقه، واختط المدينة، وأمر النَّاس بالبنيان[9].

يذكر ابن خياط أن عقبة بن نافع شرع في اختطاط مدينة القيروان في سنة 50هـ/670م[10]، فشرع في بناء المسجد الجامع ودار الإمارة، وبنى الناس بيوتهم ومساجدهم، واستمر البناء خمس سنوات كان عقبة بن نافع خلالها يرسل السرايا لتوسيع الفتح، ودعوة البربر للإسلام، وكان معه خمسة وعشرون صحابيا، وسائر جيشه كان من التابعين، وعظمت مدينة القيروان، وقصدها البربر المسلمون للتعلم والاشتراك مع إخوانهم العرب في الفتح[11].

وفي سنة 55هـ/ 675م تم عزل عقبة بن نافع عن ولاية القيروان، وعُيّن مكانه أبو المهاجر دينار فقام ببناء مدينة تِيكَرْوَان على بعد ميلين من مدينة القيروان، فانتقل أكثر أهل القيروان إليها، ولما استلم عقبة بن نافع مرة أخرى إمارة إفريقية أعاد عمارة القيروان، وكان في معسكره هذه المرة خمسة وعشرون صحابيا فجمعهم في وجوه العسكر، ودار بهم حول المدينة، وجعل يدعو وهم

يؤمّنون، ومما قال في دعائه:" اللهم املأها علما وفقها، واعمرها بالمطيعين والعابدين، واجعلها عزا لدينك، وذلا على من كفر، وأعز بها الإسلام، وامنعها من جبابرة الأرض[12]، وفي هذا الصدد يذكر المالكي ما نصه:" فشد إليها الناس المطايا من كل مكان، وعمرت بفضلاء الناس من الفقهاء والمحدثين والمتطوعين والعابدين والنسّاك والزاهدين، وأعزّ بها الإسلام وأهله. ودمغ بها أهل النفاق والأهواء والشك والضلالة[13].

ثالثا: أهمية حاضرة القيروان.

لقد أضحت القيروان حاضرة المغرب كله والأندلس لفترة من الفترات، منذ أن أسسها عقبة بن نافع سنة 50هـ/670م لتكون قاعدة لتثبيت الفتح والانطلاق غربا لمواصلة الفتوحات، ولتكون أيضا مركزا لنشر الإسلام واللغة العربية، وهو ما تمناه عقبة عندما وضع حجر أساسها من أن تكون عزا للإسلام إلى آخر الدهر[14].

أمست القيروان إذا مدينة جليلة مباركة، لها مكانة سامية في نفوس المسلمين، فقصدها الناس من شتى الآفاق، وسرعان ما أصبحت عاصمة المغرب الدينية والسياسية والعلمية، وكثر فيها الفقهاء، والمحدثون والشعراء والعباد، كما أدت مشاركة أعداد من الصحابة في بنائها إلى تبوئها مكانة سامية بين مثيلاتها المشرقية الأمر الذي أضفى على المدينة طابعا قدسيا مميزا، فهذا الدباغ خصها بوصف لم يترك جانبا روحيا إلا وتعرض له فقال فيها:" **أما القيروان فهي البلد الأعظم والمصر المخصوص بالشرف الأقدم، قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب، وقطرهم الأفخم الذي أصبح لسان الدهر عن فضله يعرب وبشرفه يُغرب، قرارة الدين والإيمان والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبدة الأوثان، قبلتها أول قبلة رسمت في البلاد المغربية، وسجد لله فيها سرّا وعلانية، ناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ومحط رحالهم ومعقلهم للإسلام المقصود إليهم سيرهم وأثقالهم، البقعة التي تخيروها مقرا للإسلام والمسلمين...دار هجرة المغرب...رابعة الثلاثة: المدينة ومكة وبيت المقدس والقيروان".** [15]

ويذهب أبو القاسم الفزاري إلى ما ذهب اليه الدباغ في الثناء على الطابع الديني للقيروان والتي حق لها أن تفتخر به بين حواضر المغرب، وحسبها في ذلك مشاركة ثلة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم في بنائها ويكفيها في ذلك فخرا [16].

وينحو نحوهما أيضا أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني الضرير والذي رغم إعاقته إلا أنه استطاع أن ينظم شعرا كله فخرا بمدينته.

والحقيقة أن القيروان لا تقل شأنا عن مثيلاتها الثلاث المشرقية (الكوفة، البصرة، الفسطاط) كونها رابع مدينة معسكر أسست خارج منطقة الحجاز، وكانت الغاية من إنشائها هو تثبيت الفتح الإسلامي ببلاد المغرب ونشر تعاليمه بين أفراد هذا المجتمع الجديد العهد بالإسلام، وتكون مركز إشعاع للحضارة الإسلامية على ربوع هذه البلاد، وهو الامر الذي قامت به مثيلاتها في المشرق [17].

أصبحت القيروان منذ تأسيسها العاصمة السياسية لبلاد المغرب والأندلس قاطبة، وظلت كذلك إلى أن بدأت الخريطة السياسية لهذه البلاد تتجزأ بعد أن ظهرت إلى الوجود دول جديدة، فقد أدى تأسيس الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية الملقب بعبد الرحمن الداخل سنة 132هـ/750م إلى انفصال الأندلس عن الخلافة الإسلامية بالمشرق، ثم تتابعت باقي أقاليم بلاد المغرب بالانفصال عنها كلما أسست دولة جديدة، فقد تلى انفصال الدولة الأموية بالأندلس الدولة المدرارية الصفرية التي أسسها سمغو بن واسول جنوب المغرب الأقصى في منطقة بعيدة عن كل مدن بلاد المغرب وعن الأمويين في الأندلس، واتخذت من مدينة سجلماسة عاصمة لها سنة 140هـ/757م، وأدى قيام الدولة الرستمية على يد عبد الرحمن بن رستم سنة 144هـ/761م بتاهرت إلى انفصال هذا الإقليم عنها، وكان الدور الأخير في الانفصال على الدولة الإدريسية التي قامت بالمغرب الأقصى وعلى وجه التحديد بفاس سنة 172هـ/788م.

وقد زاد من أفول نجم القيروان انفصال الدول الناشئة حولها في إفريقية واتخاذها عواصم جديدة لها مثل مدينة العباسية أو القصر القديم كما تعرف أيضا، والتي أسست سنة 184هـ/801م من طرف إبراهيم بن الأغلب مؤسس دولة الأغالبة، ومدينة رقادة التي أسسها الأمير الأغلبي إبراهيم بن أحمد سنة 264هـ/870م لتصبح مقرا للإمارة بعد العباسية، ثم المهدية التي اتخذها الخليفة الفاطمي الأول عبيد الله الفاطمي سنة 308هـ/920م عاصمة للخلافة لتكون حصنا منيعا قادرا على التصدي للغزوات الخارجية، ومدينة صبرة التي تعرف أيضا صبرة المنصورية التي أسسها المنصور بنصر الله تخليدا لانتصاره على أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني واتخذها عاصمة للدولة الفاطمية زهاء قرن من الزمن بدءا من سنة 336هـ/948م.[18]، وإذا كانت مدينة القيروان قد فقدت إشراقها العلمي وقوتها السياسية إبان حكم الصنهاجيين لإفريقية إلا أن فقدانها لهذه المكانة لم يلبث طويلا إذ سرعان ما استعادت مكانتها الأولى كعاصمة سياسية بعد انتقال الفاطميين إلى مصر، واستقلال الأسر الصنهاجية التي استخلفوها على إفريقية والمغرب بالحكم، فحافظت على مكانتها كعاصمة سياسية وثقافية وعلمية في بلاد المغرب كلها إلى غاية غزو قبائل بني هلال وبني سليم للمنطقة منتصف القرن الخامس الهجري وما الحقته من تضييق ودمار بمختلف حواضر بلاد المغرب عموما والقيروان خصوصا[19].

رابعا: المذاهب الاسلامية في القيروان.

بعد أن تم فتح إفريقية على أيدي الصحابة والتابعين، علّموا أهلها القرآن الكريم واللغة العربية ومبادئ الإسلام، ولقنوهم أحكام الدين رواية عن النبي صلى الله عليه وسلم أو اجتهادا منهم، كما كان أهل القيروان يسألون من بينهم من الصحابة فيما يشكل عليهم من أمور الدين، ولا شك أن الصحابة الذين جاءوا مع عقبة بن نافع وبعده قد علموا بجامع القيروان، ثم كان القادة الفاتحون يكلفون من معهم من كبار التابعين بتفقيه الداخلين في الإسلام [19].

ولم يكد يشرف القرن الأول الهجري على نهايته حتى كثر عدد المسلمين بإفريقية وازدادت الحياة تعقيدا، وبدأ عدد التابعين يتناقص مع مرور الزمن بعد أن غيب معظمهم الموت، كما أدت الحروب الطويلة مع الخوارج الى استشهاد الكثير من حملة العلم فبدأ أهل القيروان يشعرون بتناقص منابع العلم. وفي ظل هذه الظروف أصبح أهل القيروان لا يجدون من يحل ما أشكل عليهم من أمور دينهم ودنياهم، ولم يجدوا من سبيل لاستدراك ما ضاع منهم سوى شد الرحال الى المشرق لسد هذا النقص، فبدأ توجههم يزداد صوب هذه البلاد طلبا للعلم، فاتصلوا بكبار المحدثين والفقهاء، من أمثال الإمام أبي حنيفة النعمان ومالك بن أنس، وسفيان الثوري وغيرهم ثم عادوا إلى القيروان متشبعين بعلوم هؤلاء الشيوخ ونشروها بها، فكانت هذه القلة بمثابة البذرة الأولى التي أدت إلى ظهور المذاهب في المغرب [20].

واذا كان المذهب الحنفي قد دخل القيروان وكان له اتباع لفترة طويلة، وأن المذهب المالكي مازال إلى يوم الناس هذا المذهب المتبع في بلاد المغرب فهذا لا يعني أن القيروان لم تدخلها مذاهب اخرى بل بالعكس فهناك بعض المذاهب دخلت القيروان، ولكنها سرعان ما اندثرت ولم يكثر الآخذون بها، مثل مذهب أبي عمر الأوزاعي (ت.157هـ/744م)، وقد روى عنه بعض أهل القيروان، ومذهب سفيان الثوري (ت. 161هـ/748م) ومذهب دواد الظاهري (ت. 275هـ/889م)، ومذهب الشافعي، وبقي أكثر المذاهب اتباعا بالقيروان مذهب الامام مالك بن أنس، وبدرجة أقل مذهب أبي حنيفة النعمان [21].

1- المذهب الحنفي:

لقد حظي المذهب الحنفي بقصب السبق بين المذاهب في الدخول إلى القيروان، وكان المذهب الرسمي للدولة فاتبعته غالبية أهلها إلى غاية دخول المذهب المالكي، ثم بدء يضعف تدريجيا عندما أقبل الناس على مذهب مالك، ومع ذلك فقد استمر وجوده إلى مطلع القرن الخامس الهجري ثم اندثر بعدما ألزم المعز بن باديس (407-449هـ/1016-1057م) الناس باتباع مذهب مالك حسما لمادة الخلاف في المذاهب[22] حسب ما جاء في ترجمة ابن خلكان للمعز بن باديس الصنهاجي(ت. 449هـ/1057م) بقوله:"... وكان مذهب أبي حنيفة رضي الله عنه بإفريقية أظهر المذاهب، فحمل

المعز المذكور جميع أهل المغرب على التمسك بمذهب الإمام مالك بن أنس، رضي الله عنه، وحسم مادة الخلاف في الذاهب واستمر الحال في ذلك إلى الآن " [23].

والجدير بالإشارة أن أول من أدخل مذهب أبي حنيفة إلى القيروان عبد الله بن فروخ (176-115هـ/733-792م) فقد دوّن عنه نحو عشرة آلاف مسألة دخل بها القيروان قبل أن يصنف أبو حنيفة كتبه [24]، وقد جاء في الحلل السندسية وفي ترتيب المدارك ان أحد العلماء المالكية وهو أبا يوسف صاحب ابي حنيفة كان يخصص يوما في الأسبوع لتدريس كتب الأحناف [25] ، كما أن أسد بن الفرات كان يدرس كتب المذهبين الحنفي والمالكي [26]، وقد ساعد ذلك على نشر المذهب الحنفي، ولم يتوقف عند هذا الحد بل ألف كتابا سماه الأسدية نجد فيه آراء الامام ابي حنيفة على الرغم من أنه كان يأخذ بآراء الإمام مالك، وربما أخذ عنه تلامذته هذه الآراء مثل الامام سحنون الذي تتلمذ على يديه وأخذ عنه الأسدية. ويذكر المالكي أن أسد بن الفرات كان إمام العراقيين بالقيروان كافة [27]، ومن القيروان انتشر المذهب الحنفي إلى بلاد المغرب الأوسط والأقصى.

وقد ازداد الإقبال على تدريس كتب الأحناف عندما ترك الناس الأسدية، وأقبلوا على مدونة سحنون، وبذلك شاع المذهب الحنفي وانتشر، وقد أرجع شواط هذا الإقبال لعلماء المالكية على تدريس كتب الأحناف إلى عدم انجاب المدرسة الحنفية لعلماء أفذاذ في تلك الفترة بالمنطقة، مما يفسر أن أتباع هذا المذهب كانوا من متوسطي الثقافة وبعض العوام وأصحاب السلطان، وحتى هؤلاء الثلاثة الذين ساهموا في نشر المذهب الحنفي لم يكونوا يعتنقونه، إنما درسوه من باب نشر العلم [28].

تذكر المصادر التاريخية أن انتشار المذهب الحنفي في القيروان يعود إلى القرن الثاني الهجري/القرن الثامن الميلادي، وظل هذا المذهب قائما إلى غاية القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي لكن بصورة محدودة بعد أن حل مكانه المذهب المالكي، ولكن المصادر لم تزودنا عن تفاصيل انتشار هذا المذهب ورجاله الذين أسهموا في نشره إلا بمعلومات قليلة على عكس المذهب المالكي الذين أطنب المؤرخون وأصحاب الطبقات في ذكر الكثير من التفاصيل [29].

2-المذهب المالكي:

لقد تلقى أهل القيروان مذاهب السلف على يد الصحابة والتابعين، كما مر، وشاهدوا بأعينهم الفتن التي أدى إليها التأويل والبعد عن النصوص، ولذلك ما إن أدخل علي بن زياد (ت. 183هـ/799م) الموطأ إلى إفريقية وفسر لهم قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه، حتى أقبلوا عليه إقبالا منقطع النظير، لأنهم وجدوا فيه ضالتهم المنشودة لجمعه بين البساطة والأصالة، واعتماد الحديث، فإن صاحب هذا المذهب يدرس في مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، ويلتزم النص من الكتاب والسنة، ولا يأخذ إلا عن الثقات، وبرع في السنة حتى سمّي أمير المؤمنين في الحديث[30].

وفي الحق لو أن أولئك المؤرخين والعلماء والأدباء من أبناء القيروان نظروا إلى الحقيقة التاريخية وهي أن القيروان كانت بدون ريب رابع مدينة إسلامية تؤسس للمحافظة على الفتوحات الإسلامية ونشر الإسلام، والدراسات الإسلامية في الأمصار بعد الكوفة والبصرة والفسطاط كان ذلك أصدق وأبلغ، فقد كانت القيروان تقوم بنفس الدور السياسي والعسكري والديني والعلمي الذي قامت به الكوفة والبصرة والفسطاط، بيد أن دور القيروان في الواقع كان أشمل وأعمق لأنها تفردت بالجانب العلمي في بلاد المغرب في الفترة الممتدة من الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري[31].

ولئن فقدت القيروان بعض إشراقها كعاصمة في خضم تلك الأحداث التي أفضت إلى تأسيس عواصم جديدة مع انفصال الأندلس والمغربين الأوسط والأقصى عنها إلا أنها ما فقدت يوما مكانتها كعاصمة ثقافية ومركز علمي رئيسي في بلاد المغرب كلها، ذلك أنها أصبحت منذ تأسيسها وحتى سقوطها في يد قبائل بني هلال وسليم في منتصف القرن الخامس الهجري العاصمة العلمية الكبرى في المغرب الأدنى والمغرب كله، فقد تبوأت مركزها العلمي الريادي قبل أن يقع فتح الأندلس وقبل أن تؤسس عواصم العلم والمعرفة في بقية أنحاء تونس تاهرت تلمسان فاس مراكش، وحل بها بعض الصحابة وكثير من التابعين وتابعيهم ونشروا فيها العلوم الدينية في مجالاتها المختلفة، وتوافد عليها كبار الأدباء واللغويين والنحاة،

وبلغت من المكانة الفقهية أن أصبح لها مدرسة فقهية نافست غيرها من مدارس الفقه المالكي، وذلك عندما أنجبت عددا من كبار الفقهاء الذين أصبح يُنظر إليهم بوصفهم رموزا علمية عالية كسحنون مثلا[32].

خامسا: المؤسسات العلمية والتعليمية في القيروان.

عرفت القيروان منذ تأسيسها إلى غاية منتصف القرن الخامس الهجري حركة علمية نشيطة فقد استقطبت العلماء من بلاد المشرق والمغرب على حد سواء فمنهم من جاءها ضمن الجيوش الاسلامية واستقر بها أو عاد إلى المشرق وكان معظم هؤلاء من الصحابة والتابعين، ومنهم من وفد إليها في البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية والذين قدرت بعض المصادر التاريخية عددهم بعشرة، ومنهم من ولدوا وترعرعوا فيها وتلقوا علومهم عن علمائها، ومنهم من وفدوا إليها من مدن إفريقية والمغرب والأندلس مع بداية القرن الثاني الهجري إما بغرض نشر العلم أو الاستزادة فيه.

وكان لابد من توفير المؤسسات العلمية بالقدر الكافي لمسايرة هذا الغرض الذي جاء من أجله هذا الكم الهائل من العلماء. وقد شهدت القيروان في هذه الفترة إنشاء عدد معتبر من المؤسسات العلمية بالقدر الذي يستجيب لمتطلبات الحياة العلمية والثقافية بها وتنوعت بين مساجد وكتاتيب ومكتبات.

1- المساجد:

أ- المسجد الجامع بالقيروان:

يعتبر المسجد المؤسسة التعليمية الأولى التي عرفت في الإسلام على يد الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة من بعده فبالإضافة إلى كونه مكانا للعبادة تؤدى فيه فريضة الصلاة ونشر تعاليم الدين الإسلامي وبث الوعي في نفوس المسلمين وغيره، فهو أيضا يمثل المكان الرئيسي لنشر مختلف العلوم، وقد برزت مكانة المسجد الجامع بالقيروان أو جامع عقبة بن نافع نسبة إلى مؤسسه ليس في

إفريقية أو المغرب الأدنى فحسب وإنما في المغرب كله، وتأتي أهميته تلك في كونه أقدم مسجد أنشئ في بلاد المغرب كله والأندلس، هذا من جهة، ومن جهة ثانية فإن قبلته التي حددها عقبة بن نافع بمشاركة عدد الصحابة والتابعين وبقيت الى اليوم على حالها رغم الاضافات والتوسيعات التي الحقت بالجامع على مر الزمن أكسبته قدسية في نفوس المسلمين فكان يحتذي بها أهل إفريقية والمغرب والأندلس عند بناء مساجدهم، وقد زاد من أهمية المسجد مكانته العلمية والثقافية باعتباره أول مدرسة أسست لنشر الإسلام في إفريقية[33].

وتروي المصادر الإسلامية العديد من الشواهد التاريخية على هذه المكانة التي حازها جامع القيروان سواء من الناحية الاجتماعية أو العلمية من ذلك ما رواه الدباغ في معالم الإيمان عن استقطاب جامع القيروان لأكثر علماء المدينة أو الوافدين إليها فقد روى حديثا لأحد قضاة القيروان المبرزين وهو القاضي عبد الله بن غانم (ت.190هـ/806م) الذي عاصر الولاة العباسيين وخاصة المهالبة منهم، ثم عاصر مرحلة تأسيس الدولة الأغلبية على يد إبراهيم بن الأغلب بقوله:" انصرف يوما من جامع القيروان الأعظم بعد صلاة الجمعة فدخل عليه بعض أصحابه فسأله ابن غانم حضرت اليوم الجامع؟ قال: نعم قال: كيف رأيت؟ قال: رأيت أصلحك الله به تسعين قلنسوة تصلح للقضاء وثلاثمائة قلنسوة فقيه فترجع ابن غانم وقال: مات الناس [34].

وحديث ابن غانم هذا مهم من ناحيتين: أولاهما تدلنا دلالة واضحة على أن جامع القيروان شهد قبل ذلك أعدادا كبيرة من القضاة والفقهاء والعلماء الذين لازموا أساطينه وأروقته، وأنهم بلغوا من القلة في عهد ابن غانم ما جعله يتحسر ويتألم ويقول عبارته تلك: مات الناس، وثانيهما: أن في العدد الذي ذكره الرجل لابن غانم من العلماء والفقهاء في عصره الدليل على مكانة جامع القيروان مع أنه لا يرقى إلى ما عهده وعلمه ابن غانم [35].

ومما يدل أيضا على مكانة جامع القيروان خلال القرن الثاني الهجري ما ذكره المالكي:" أنه قدم إلى القيروان وزير للخليفة فدخل المسجد الأعظم، فرأى حلقة عظيمة وفيها شاب كلما اختلف اثنان ممن حضر الحلقة رجعا إليه وصدرا عن رأيه، فقال الوزير: من يكون هذا؟ فقيل له: هذا يزيد بن الطفيل" [36].

ويصور لنا البهلول بن راشد الدور التعليمي لجامع القيروان بقوله:" فكنت أمرّ على مسافر بن سنان في المسجد الجامع وهو يذكّر الناس ويعظهم وقوم من القراء يقرؤون [37].

وإلى جانب جامع القيروان فقد أدى العدد الكبير من العلماء والتابعين وما كان يحذوهم من رغبة في الظفر بفرصة التدريس ونشر العلم الى تشييد مساجد أخرى؛ فقد شيد التابعون الكثير من المساجد بمدينة القيروان، وحذا حذوهم الصالحون والأغنياء من أهل البلد حتى بلغ عدد مساجد القيروان في عصور ازدهارها ثلاثمائة مسجد [38] نذكر من أهمها:

ب- مسجد الأنصار: ويصنع هذا المسجد الاستثناء في المدينة من حيث تاريخ بنائه إذ يقال أنه أنشئ قبل اختطاط القيروان على يد الصحابي رويفع بن ثابت الأنصاري سنة 47هـ/667م[39].

ج-مسجد الزيتونة: يناه التابعي إسماعيل بن عبيد الأنصاري الملقب بتاجر الله، وذلك سنة 93هـ/712م، وهو مسجد كبير جليل في وسطه ماجل مستطيل، ثم إنه تهدم وأقام كذلك أعواما حتى قام ببنائه الشيخ أبو سعيد بن محمد التيمالي المعروف بالعود الرطب رحمه الله، وحبّس عليه حوانيت بمدينة تونس، وذلك في سنة 660هـ/1262م، وهذا المسجد هو اليوم بخارج سورها المحدث بعد القديم من الجانب الغربي [40].

د-**مسجد أبي ميسرة:** يذكر الدباغ بأن هذا المسجد قد بناه بعض التابعين في نهاية القرن الأول الهجري، وإنما ينسب إلى أبي ميسرة أحمد بن نزار الفقيه (ت. 337هـ/949م)، ولا يزال قائما بالقيروان حتى الآن [41].

ج- مسجد أبي عبد الرحمن عبد الله بن يزيد الحبلي (ت. 100هـ/719م): بناه التابعي أبو عبد الرحمن عبد الله الحبلي في سنة 100هـ/719م، وهو بدرب أزهر قرب تونس المعروف بأولاد غيث [42].

د- مسجد حنش الصنعاني التابعي (ت. 100هـ/719م): يقع هذا المسجد بباب الريح، وقد أسسه التابعي حنش الصنعاني [43].

هـ- مسجد علي بن رباح اللخمي (ت. 114هـ/732م): ويقع بجوار باب نافع على اليمين قبل أن يخرج، وانتفع به وتفقه على يديه أهل القيروان [44].

و- مسجد السبت: ويُعرف بمسجد الدمنة، وهو بالمدينة منسوب لأبي محمد الأنصاري الدمني الضرير، وهذا المسجد يلاصق السور القديم من الجبلى، وكان يجتمع فيه الصلحاء والقراء والحفاظ كل يوم سبت من أول النهار إلى الزوال [45].

ز- مسجد الخميس: وهو بالقرب من مسجد السبت، وقد بناه أبو إسحاق بن المضاء الزاهد صاحب سحنون، وكان يجتمع به الصلحاء والقراء وأهل الخير كل يوم خميس من العصر إلى الليل[46].

وهناك مساجد عُرفت بأسماء الشيوخ الذين يتولون التدريس فيها، مثل: مسجد ابن سحنون، ومسجد البهلول بن راشد، ومسجد يحي بن عمر، وغيرها. وقد قامت هذه المساجد بالدور الأكبر في نشر العلوم بحاضرة القيروان، وعلى رأسها علم الفقه والحديث، وفي رحابها عُقدت المجالس العلمية، وانتصبت الحلقات الدراسية التي رُويت فيها المصنفات، وقرئت على كبار العلماء، وتلقاها الطلاب من سائر بلاد إفريقية والمغرب والأندلس [47].

2-المكتبات:

يعتبر الكتاب من أهم الركائز العلمية التعليمية، خاصة في العلوم النقلية، كما أن التأليف هو الثمرة الطبيعية لازدهار العلوم، وصيانة نصوص الشرع وفقهه من كتاب وسنة، وأقوال السلف الصالح، ولذا فإن توفير نسخ من القرآن الكريم ومن كتب السنة والفقه وغيرها، وصيانتها من التلف، وتسهيل عملية الاطلاع عليها وتنظيمها من أخص لوازم ذلك حتى يمكن الاستفادة منها في الدراسة والمذاكرة، والرجوع إليها عند الحاجة، وإلا كان تصنيفا ضربا من العبث، ومن هنا جاءت فكرة إنشاء المكتبات لحفظ الكتب وتوفيرها وصيانتها من الضياع، وتسهيل الاستفادة منها، فكان ذلك من أولى اهتمامات المشتغلين بالعلم، ولم يقتصر دور المكتبة على ما تقدم ذكره، بل كثيرا ما تكون موضعا للتدريس، أو المناظرة، أو المذاكرة، أو مقابلة الكتب وتصحيحها، بل ونسخها أيضا، حيث لم تكن الطباعة قد عرفت بعد[48].

ومن أهم مكتبات القيروان نذكر ما يلي:

أ- المكتبات العامة:

أنشئ في القيروان المكتبات العامة والمكتبات الملحقة بالمساجد غالبا لتكون في متناول من يطلبها من الدارسين، وكانت تضم نفائس الكتب وأمهاتها، ومن أهم المكتبات العامة التي اشتهرت بالقيروان مكتبة جامع عقبة بن نافع الموجودة بالمقصورة قِبْليّ قاعة الصلاة، وقد أنشئت هذه المكتبة التي عرفت ببيت الكتب تدريجيا ابتداء من أول القرن الثالث الهجري على عهد الأغالبة، عندما ازدهرت الحياة العلمية في زمن سحنون، وتفرغ الجامع لدراسة الفكر السني، وفي عهد الدولة الزيرية أوقفت إحدى نساء بني زيري مجموعة من الكتب الجليلة كالمصاحف وغيرها من المؤلفات، وقد استمرت العناية بهذه المكتبة حتى القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي حيث أصابها التلف والضياع مما قلل من قيمتها ومكانتها [49].

ب - مكتبة بيت الحكمة: كان من أهم الأعمال التي قام بها الأمير أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد الأغلبي أو إبراهيم الثاني أثناء فترة حكمه (261-289هـ/ 875-902م) خدمة للعلم في إفريقية، تأسيسه لبيت الحكمة التي تعتبر المؤسسة العلمية الأولى في شمال إفريقيا على شاكلة بيت الحكمة في بغداد واستقدم لها العلماء المختصين في مختلف العلوم من بغداد ودمشق والفسطاط، وقد واصل ابنه عبد الله وكان أيضا محبا للعلم نهج والده إلا أن الحظ لم يسعفه لإتمام مهمته ذلك أن مدة حكمه لم تدم إلا عاما واحدا، ليتولى بعده ابنه زيادة الله الثالث الحكم، ورغم الفتن والقلاقل التي ميزت مدة ملكه إلا أنه استطاع أن يوصل هذه المؤسسة إلى أوج تقدمها. وأغلب الظن أن هذه المؤسسة كانت موجودة إما في قصر الصحن أو قصر الفتح برقادة. ورغم شهرتها إلا أنه لم يصلنا من المعلومات عنها إلاّ النزر القليل لأسباب تبقى مجهولة، ولعل أبرزها ما لحقها من تخريب وحرق لمكتبتها مع غزو بني هلال سنة **448هـ/1057م**. وقد خصها حسن حسني عبد الوهاب في كتابه ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية بدراسة مستفيضة لا يتسع المقام هنا للتطرق إليها بتوسع [50].

ج- المكتبات الخاصة: اهتم علماء القيروان بتدوين الكتب ونسخها، فكان لكل عالم أو فقيه في بيته مكتبة خاصة به، ومن أهم هاته المكتبات نذكر ما يلي:

- مكتبة الإمام سحنون (ت. 256هـ/870م): كانت تحتوي على جميع كتب عبد الله بن وهب، وهي كتب في أغلبها حديثية، كالجامع، والمغازي، والزهد، والموطأ بروايته عن مالك وغيره [51].

- مكتبة عيسى بن مسكين (ت. 259هـ/873م): وقد ذكر القاضي عياض عن أبي الحسن الكانشي أنه قال:" دخلني عيسى بن مسكين الى بيت مملوءة بالكتب، ثم قال: كلها رواية. وما فيها كلمة غريبة إلا وأنا أحفظ لها شاهداً، من قول العرب"[52].

- مكتبة حمدون بن مجاهد (ت. 319 أو 321هـ/931 أو 933م): ذكر المالكي عن أبي بكر ميسرة بن مسلم أنه قال:" قال لي حمدون: كتبت بيدي ثلاثة آلاف كتاب وخمسمائة كتاب ولعل الكتاب الذي أدخل به الجنة لم أكتبه بعد" [53].

سادسا: الحياة العلمية بالقيروان.

ابتدأت الحياة العلمية في القيروان بالعلوم الدينية وعلى رأسها القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ثم الفقه والتفسير التي قدم بها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعوهم، وقد ذكر مؤرخو الطبقات كأبي العرب في كتابه طبقات علماء إفريقية والمالكي في كتابه رياض النفوس والدباغ في معالم الإيمان أن إفريقية دخلها تسعة وعشرون أو ثلاثون صحابيا خلال فتحهم لإفريقية منهم من شهد العقبة ومنهم من شهد بدرا وما بعدها من المشاهد ومنهم من شهد بيعة الرضوان وصلى القبلتين، وأن بعضهم مكث في إفريقية وبعضهم عاد بعد انتهاء الغزوة التي قدم بها [54].

ويذكر المؤرخون أن عقبة بن نافع عندما عاد للمرة الثانية وكان ذلك في سنة 60هـ/680م ومعه خمسة وعشرون صحابيا، قام بجمع وجوه أصحابه وكبراء عسكره ودار معهم حول القيروان وهو يدعو ويقول:" اللهم املأها علما وفقها وأعمرها بالمطيعين والعابدين واجعلها عزا لدينك وذلا على من كفر وأعز بها الإسلام وامنعها من جبابرة الأرض" [55].

1- أسماء بعض الصحابة الذين دخلوا القيروان: من أبرز علماء الصحابة الذين كان لهم الأثر الكبير في تأسيس القيروان كمركز علمي إسلامي، وفي زرع بذور الحياة العلمية بالقيروان، ومن أبرزهم: أبو سعيد المقداد بن عمر البهراني القضاعي، وأبو اليسر كعب بن عمر الأنصاري، وعبد الله بن أنيس الجهني حليف الأنصاري، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأبو ذر الغفاري، وأبو عبد الله عمرو بن عوف المزني، وسلمة بن عمرو بن الأكوع السلمي، وأبو زمعة عبيد بن أرقم البلوي، وعبد الله بن الزبير...إلخ [56].

ويذكر الدباغ بعد ذلك اثني عشر صحابيا نزلوا بإفريقية، ويصفهم بأنهم كانوا من صغار الصحابة وهم: عبد الرحمن بن الأسود القرشي، وأبو عمر عاصم بن عمر بن الخطاب، وعقبة بن نافع بن عبد القيس، وعبيد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب، وعبد الرحمن بن العباس بن عبد المطلب، ومعبد بن العباس بن عبد المطلب، وعبد الرحمن بن صبيحة الليثي، ومروان بن الحكم بن أبي العاص، وأبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي الشاعر، وأبو منصور الفارسي مولى سعد بن أبي وقاص، وكان فقيها قارئا للقرآن ومفتيا، سكن القيروان إلى أن مات بها، وأبو سعيد كيسان المقبري[57].

2- أسماء بعض التابعين الذين دخلوا القيروان: ساهم هؤلاء التابعون في تعميق جذور الحياة العلمية ومن أبرزهم: أبو عبد الله محمد بن أويس الأنصاري الذي اشتهر بالفقه والصلاح مع إحاطته بالرواية والدراية، وحنش بن عبد الله الصنعاني الذي سكن القيروان وروى عن عدد من الصحابة منهم علي بن أبي طالب وابن عباس وروى عنه عبد الرحمن بن أنعم وقيس بن الحجاج، ومنهم علي بن رباح اللخمي محدث إفريقية، وقد سكن القيروان واختط بها دارا ومسجدا وتفقه أهل القيروان على يديه، وكان حسن الموعظة روى له مسلم في صحيحه [58].

وأبو عبد الله بن عكرمة مولى بن عباس وقد قيل أن أصله من بربر إفريقية، وكان كثير الرواية عن مولاه وعليه معتمده، روى عن عبد الله بن عمرو بن العاص وأبي هريرة وروى عنه خلق كثير، وأدخله مالك في موطئه، وقد وثقه بعضهم وضعفه آخرون، لكنهم اتفقوا جميعا على حفظه ومعرفته بالعلم وتفسير القرآن الكريم، وقد دخل إفريقية وأقام بالقيروان حيث كان يجلس في مؤخر المسجد غربي المنارة ليعلم سكان القيروان، فبث بها علما كثيرا وخاصة تفسير القرآن الكريم الذي تلقاه عن مولاه ابن عباس [59].

وهؤلاء التابعين لما دخلوا القيروان أقاموا بها وعلموا خلالها أهل القيروان كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وما يعلمونه من فقه في الدين أو تفسير للقرآن الكريم، كما كانت أخلاقهم وسيرتهم وحياتهم أسوة طيبة اقتدى بها سكان القيروان واغترفوا من معينها، وكانت جهودهم إلى جانب من سبقوهم من كبار الصحابة وصغارهم ترمي كلها إلى نشر الدين وتعاليمه السمحة، وإليهم يعود الفضل في تلقي أهالي القيروان المبادئ الإسلامية الأولى والتي سرعان ما نمت وتوسعت بقدوم العلماء والمحدثين في فترات لاحقة.

يمكن القول أن من هؤلاء الصحابة والتابعين وغيرهم تلقى عليهم أهل القيروان العلم فشرح الله صدورهم للإسلام وللقرآن الكريم والسنة النبوية والتعاليم الدينية.

3- الفقهاء العشرة أعضاء البعثة العلمية إلى القيروان:

عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة في سنة 99هـ/718م وجه عناية خاصة إلى المركز الإسلامي في غرب الدولة، فاختار عشرة من فقهاء التابعين أهل فضل وعلم، وألقى على عاتقهم مهمة القيام بنشر التعاليم الإسلامية وتثقيف المسلمين في إفريقية، فقدمت بعثة الفقهاء إلى القيروان واستقرت فيها، وكان لكل واحد منهم جهود موفقة ذات أثر عميق في تعليم الناس وكانت هذه البادرة من مقدمات بزوغ فجر الحياة العلمية بالقيروان، وما من شك أن هؤلاء القادمين من المشرق والذين قطعوا مسافات شاسعة كانوا يتنقلون في أنحاء المغرب لنشر التعاليم الإسلامية إلا أن المقر الرئيسي لهم كان في مدينة القيروان، حيث بنى كل منهم دارا ومسجدا وكتابا أو مدرسة صغيرة، ففي الكُتّاب يكون تعليم الصغار للقرآن الكريم، فإذا نموا وكبروا كان حضورهم لحلقة العلم في المسجد حيث يتلقون علوم الحديث والأحكام الفقهية والتفسير وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وغزواته [60].

وقد أشار أبو العرب التميمي في كتابه طبقات علماء افريقية [61] إلى أن هؤلاء الفقهاء بلغ عددهم عشرة من بينهم تسعة أشار الى أسمائهم، وقد خصت كتب الطبقات هؤلاء العلماء العشرة بتراجم نوجزها فيما يأتي:

أ-إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر المخزومي: وهو رئيس بعثة الفقهاء ولاه عمر بن عبد العزيز على إفريقية في عام 99هـ/718م، فحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وفقههم في الدين وعلمهم السنن، وسار بينهم بالحق والعدل، مما حمل كثيرا من البربر على اعتناق الإسلام، وكان مثالا طيبا للزهد والتواضع والتقشف ودعوة البربر إلى الإسلام، وقد بلغ الأمر بالتنوخي الى مقارنته في الزهد بعمر بن عبد العزيز. روى عن عبد الله بن عمرو وفضالة بن عبيد وعن غيرهما من التابعين، وروى عنه الأوزاعي بالمشرق وعبد الرحمن بن زياد وغيره بالقيروان، إلى ان توفي بها سنة 132هـ/750م [62].

ب- إسماعيل بن عبيد الأنصاري(تاجر الله): تلقى علمه وفقهه في الدين عن جمع من الصحابة منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو، كما روى عنه من أهل إفريقية عبد الرحمن بن زيادة بن أنعم وبكر بن سوادة المخزومي، وكان معروفا بالفضل والعبادة والزهد والتقشف، وسُمي تاجر الله لأنه جعل ثلث كسبه لله تعالى يصرفه في وجوه الخير، وإليه ينسب السوق المعروف بسوق إسماعيل، وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان وهو أحد المساجد السبعة المشهورة بالقيروان الذي يعرف بمسجد الزيتونة، وكان يعمره بالتعليم والعبادة، ويعتبر المسجد الثاني بالقيروان، وقد انتفع بعلمه وخُلقه سكان القيروان وغيرهم، وتوفي غازيا بجزيرة صقلية سنة 107هـ/725م [63].

ج- عبد الله بن يزيد المعافري المعروف بالحبلي: روى عن جمع من الصحابة كما روى عنه جماعة منهم يزيد بن عمرو وأبو هاني الخولاني وغيرهما، وكان لجهوده العلمية أثر كبير في التفقه في الدين ونشر الدعوة الإسلامية، وانتفع بعلمه خلق كثير من أهل

القيروان، وقد اختط بها دارا ومسجدا وكتابا في ناحية باب تونس الغربي، وتوفي سنة 100هـ بالقيروان [64].

د- أبو مسعود سعد بن مسعود التجيبي الكندي: صحب جماعة من الصحابة وروى عنهم منهم أبو الدرداء وغيره، وقد روى عنه جماعة منهم عبد الرحمن بن زيادة بن أنعم وعبد الله بن زخر وأدخله عبد الله بن وهب في جامعه، اشتهر بالدين والعقل وأورد المالكي أن له كتابا كتبه فقهاء السبعة [65].

هـ- عبد الرحمن بن رافع التنوخي: كان من التابعين الفضلاء روى عن جمع من الصحابة منهم عبد الله بن عمرو بن العاص روى عنه عبد الرحمن بن زياد وغيره، وقد ولاه موسى بن نصير القضاء بالقيروان وهو أول من تولى القضاء عليها، وكان عادلا في أحكامه ثقة في نفسه وقد مكنه ذلك من نشر علم كثير، وتوفي بالقيروان سنة 113هـ/731م [66].

و- موهب بن حي المعافري: صحب ابن عباس وروى عنه وعن غيره من الصحابة، وهو تابعي من أهل الفضل والدين، روى عنه عبد الرحمن بن أنعم وعياش بن عباس القتباني، وقد اشترك في غزو المغرب، ثم سكن القيروان لنشر العلم والتعليم إلى أن أدركته الوفاة بها [67].

ز- حبان بن أبي جبلة القرشي مولى بني عبد الدار: تلقى العلم عن جماعة من الصحابة منهم عمرو بن العاص وولده عبد الله وعبد الله بن عباس وروى عنه عبد الرحمن بن زياد بن أنعم وأبو شيبة عبد الرحمن الصدائي، وهو من أهل الفقه والدين، وسكن القيروان وقام بنشر العلم والمعرفة فانتفع به أهل القيروان وتوفي بها سنة 125هـ/743م [68].

ح- طلق بن جابان الفارسي: تابعي فقيه كان يفقه المصريين ثم وجهه عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل القيروان، ولم يذكر أحد ممن رجعت إليه عمن روى من الصحابة، وروى عنه عبد الرحمن بن زياد وموسى بن علي ولم يذكر تاريخ وفاته [69].

ط- بكر بن سوادة الجذامي: من فقهاء التابعين روى عن جماعة من الصحابة منهم عقبة بن عامر وسهل بن سعد الساعدي وغيرهم وروى عن بعض التابعين كسعيد بن المسيب والزهري وغيرها، وكان فقيها مفتيا سكن القيروان ونشر بها العلم إلى أن توفي سنة 128هـ/746م [70].

ي-أبو سعيد جعثل بن هامان الرعيني: من فقهاء التابعين يروي عن أبي تميم عبد الله الجيشاني ولم يذكر المؤرخون عمن روى عن الصحابة، وروى عنه بكر بن سوادة وابن زحر وأدخله النسائي في مسنده، وقد أرسله عمر بن عبد العزيز لتفقيه أهل القيروان، وهو أحد القراء الذين كانوا يعلمون أهل القيروان، وولاه هشام بن عبد الملك القضاء بين الجند، وتوفي سنة 115هـ/733م [71].

4- أبرز علماء القيروان المتقدمين:

أ- عبد الرحمن بن زياد: ولد عبد الرحمن بن زياد ببرقة وكان مع الجند الداخل إلى إفريقية في سنة 74هـ/694م، وتلقى العلم عن التابعين فهو يروي عن جميع أعضاء البعثة الفقهاء إلى القيروان وعن غيرهم من التابعين، وروى عن فضلاء المشرق الإسلامي كسفيان الثوري وعبد الله بن المبارك وغيرهم، ومن أهل القيروان روى عنه البهلول بن راشد، وصار من خيرة حملة الحديث ودخل في زمرة العلماء المتقدمين الموصوفين بالزهد والورع والصلاح، وأضاف إلى اتقانه للحديث تفننه في علوم العربية والشعر، ولصلاحه وتقواه عمل الخلفاء على إسناد مهمة القضاء إليه سواء في عهد بني أمية أو في عهد بني العباس [72].

ب- عبد الله بن فروخ الفارسي: أبوه من خراسان ثم قدم المغرب، وولد عبد الله بن فروخ بالأندلس سنة 115هـ/733م، ثم قدم القيروان واستوطنها وتلقى بها العلم، فكان فقيها ورعا فاضلا يتسم بالتواضع، وكان حافظا للحديث والفقه، ورحل إلى المشرق في طلب العلم فأخذ عن مالك بن أنس وسفيان الثوري وغيرهم وصحب أبا حنيفة في طلب العلم وكتب عنه مسائل كثيرة غير مدونة يذكر أنها عشرة آلاف مسألة، وكان مع أخذه علم مالك وغيره من كبار رجال

الحديث، يميل إلى طريقة النظر والاستدلال، وعن ابن فروخ وتلاميذه انتشرت آراء أهل العراق في إفريقية وهو أول من أظهرها، وقد توفي بمصر بعد أدائه فريضة الحج سنة 176هـ/792م [73].

ج- البهلول بن راشد: ولد في سنة 128هـ/746م بالقيروان واشتهر بالعبادة والتقوى والصلح والتمسك بالسنة والفقه في الدين، وكان ثقة مجتهدا ورعا، وقد تلقى العلم أولا بإفريقية عن عبد الرحمن بن زياد وغيره، ثم رحل إلى المشرق فسمع من مالك والثوري والليث بن سعد وغيرهم، وعند عودته سمع منه جلة من العلماء كسحنون بن سعيد ويحي بن سلام وغيرهما، كما روى عنه مسلم في سننه، وقام بالفتيا وألف ديوانا في الفقه على مذهب مالك، وربما مال إلى قول الثوري، وكان القعنبي يصفه بأنه وتد من أوتاد المغرب [74].

د- عبد الله بن عمر بن غانم: ولد سنة 128هـ/746م، وكان والده موصوفا بالشجاعة والقوة، وكان على ساقة الجيش يوم وقعة القرن والأصنام حين خرج والي إفريقية والمغرب والأندلس حنظلة بن صفوان لمحاربة الخوارج، وتلقى عبد الله تعليمه الأول بالقيروان فسمع من عبد الرحمن بن زياد وغيره، ثم ارتحل إلى المشرق في طلب العلم فدخل الحجاز والشام والعراق وسمع من مالك وعليه اعتماده، كما سمع من سفيان الثوري وأبي يوسف صاحب أبي حنيفة وغيرهم، وكان ثبتا ثقة فقيها مع فصاحة لسان وحسن بيان وبصر بالعربية ورواية للشعر، وبعد تلقيه العلم بالشرق عاد إلى المغرب لبث علمه، وروى عنه القعنبي وابن القاسم، وتعلم في حلقته سحنون بن سعيد وداود بن يحي وسعيد أخوه وغيرهم كثير، روى عنه سحنون في المدونة وأدخله ابن عبدوس في المجموعة، ومع اعتماد بن غانم على مالك وميله إليه فقد كان يقرأ كتب أبي حنيفة في الجمعة، وتولى القضاء في سنة 172هـ/788م، وبذلك تحققت فراسة الإمام مالك، وكان دقيقا وعادلا في قضائه [75].

الهوامش:

1- محمد بن عذارى، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت-لبنان، 1983؛ ج1، ص13-19.

2- عبد الرحمن بن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب، مكتبة الثقافة الدينية، مصر، 1415هـ، ص.193

3- القيروان: لفظ فارسي معرب، وهو بالفارسية كاروان، ومعنى القيروان في اللغة القافلة، يقال أن القافلة نزلت بذلك المكان وبنيت المدينة في موضعها فسميت باسمها، وهو اسم للجيش أيضا وقيل القيروان بفتح الراء الجيش وبضمها القافلة، وقيل أيضا القيروان معناه معظم العسكر. أنظر: ياقوت الحموي، معجم البلدان، ط2، دار صادر، بيروت-لبنان، ج4، ص420؛ عبد المؤمن القطيعي، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ط1، دار الجيل، بيروت-لبنان، 1412ه، ج3، ص1139؛ محمد بن أبي بكر الرازي، مختار الصحاح، ط5، المكتبة العصرية، الدار النموذجية، بيروت، صيدا-لبنان، 1420هـ/1999م، ص252؛ المبارك بن محمد بن الأثير، النهاية في غريب الحديث، تحقيق: طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، المكتبة العصرية، بيروت-لبنان، 1399ه/1979م، ج4، ص131؛ محمد بن منظور، لسان العرب، ط3، دار صادر، بيروت-لبنان، 1414ه، ج5، ص ص175-176.

4- عبد الله بن عبد العزيز البكري، المسالك والممالك، دار الغرب الإسلامي، 1992م، ج2، ص675؛ محمد الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط1، عالم الكتب، بيروت-لبنان، 1409ه، ج1، ص284.

5-ابن عذاري، المصدر السابق، ج1، ص19.

6- المصدر نفسه، ج1، ص10.

7-عبد الله بن محمد المالكي، رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم، تحقيق: بشير البكوش، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، 1414هـ/1994م، ج1، ص20؛ ابن عذارى، المصدر السابق؛ ج1، ص13.

8-المالكي، المصدر السابق، ج1، ص30؛ علي بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1415هـ/1994م، ج4، ص57؛ ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص15.

9-ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص19؛ ابن الأثير، المصدر السابق، ج4، ص.57

10-خليفة بن خياط، تاريخ بن خياط، تحقيق أكرم ضياء العمري، دار القلم، دمشق-سوريا، 1397هـ، ص210.

11-عبد الرحمن بن خلدون، ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ط2، دار الفكر، بيروت-لبنان، 1408ه/1988م، ج3، ص12؛ الحسين بن محمد شواط، مدرسة الحديث في القيروان من الفتح إلى منتصف القرن الخامس الهجري، الدار العالمية للكتاب الإسلامي، الرياض-السعودية، 1411ه، ص45-46.

12-ابن عذارى، المصدر السابق، ج1، ص10.

13-المالكي، المصدر السابق، ج1، ص13.

14-المصدر نفسه، ج1، ص.19

15- عبد الرحمن الدباغ، معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان، أكمله وعلق عليه: أبو الفضل عيسى التنوخي، مكتبة الخانجي، القاهرة-مصر، ج1، ص ص 6 -7.

16-المصدر نفسه، ج1، ص ص22-23.

17- مبارك بوطارن، تطور العمران في بلاد المغرب الإسلامي، كنوز الحكمة، الجزائر،2013، ص266.

18– المرجع نفسه، ص ص 347،342،334، 357.

19- يوسف حوالة، الحياة العلمية في إفريقية " المغرب الأدنى " منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري (90-450هـ)، مكتبة الملك فهد الوطنية، جامعة أم القرى، مكة المكرمة-السعودية، 1421هـ/2000م، ج1، ص149.

19- شواط، المرجع السابق، ج1، ص ص87-88

20-المرجع نفسه، ج1، ص89

21- المرجع نفسه، ج1، ص ص89-90

22- المرجع نفسه، ج1، ص ص90-91

23- أحمد بن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر، بيروت-لبنان، 1900م، ج5، ص ص233- 234، أحمد السلاوي، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري ومحمود الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، د. ت. ط، ص194.

24- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص181.

25- الحلل السندسية في الأخبار والآثار التونسية ج4، ص 247؛ ا ألقاضي عياض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: ابن تاويت الطنجي وغيره، ط1، مطبعة فضالة - المحمدية، المملكة المغربية، 1965-1983م، ج3، ص67.

26- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص265-267، ابن خلكان، ج3، ص181.
27- اليحصبي، المصدر السابق، ج3، ص296، المالكي ج1، ص254-264. المقدسي، ص237، أبو العرب، المصدر السابق، ص80.
28- شواط، المرجع السابق، ج1، ص91.
29- اليكري، المصدر السابق، ص7.
30- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص234؛ شواط، المرجع السابق، ج1، ص93.
31- الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص7.
32-حوالة، المرجع السابق، ج1، ص149.
33- شواط، المرجع السابق، ج1، ص ص129-130.
34-الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص310؛ حوالة، المرجع السابق، ج1، ص ص204-205.
35- حوالة، المرجع السابق، ج1، ص ص204-205.
36- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص172.
37- المصدر نفسه، ج1، ص200.
38- شواط، المرجع السابق، ج1، ص131.
39- الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص27.
40-المصدر نفسه، ج1، ص ص27-28.
41- المصدر نفسه، ج1، ص30؛ شواط، المرجع السابق، ج1، ص132.
42- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص99-101؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص31.
43- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص119؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص33، 31، 184.
44- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص121؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص31.
45- الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص31.
46- المصدر نفسه، ج1، ص32.
47- شواط، المرجع السابق، ج1، ص133.
48- المرجع نفسه، ج1، ص143.
49- حوالة، المرجع السابق، ج1، ص252؛ شواط، المرجع السابق، ج1، ص144.
50-أنظر: محمد بن عبد الله بن الأبار، التكملة لكتاب الصلة، تحقيق: عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، 1415هـ/1995م، ج1، ص147؛ أحمد بن محمد المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، وذكر وزيرها

لسان الدين بن الخطيب، تحقيق: إحسان عباس، ط1، دار صادر، بيروت-لبنان، 1997م، ج3، ص134؛ شواط، المرجع السابق، ج1، ص ص151-153.
51- شواط، المرجع السابق، ج1، ص146.
52-اليحصبي، المصدر السابق، ج4، ص333.
53- المالكي، المصدر السابق، ج2، ص203؛ - شواط، المرجع السابق، ج1، ص147.
54-للمزيد أنظر ما ذكره شواط، المرجع السابق، ج2، ص ص463-504.
55- الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص7-8.
56- المصدر نفسه، ج1، ص ص33-160.
57-- المصدر نفسه، ج1، ص ص161-179.
58- أبو العرب، المصدر السابق، ص18؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص119-122.
59- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص145-146.
60-- المصدر نفسه، ج1، ص99.
61- أبو العرب، المصدر السابق، ص ص20-21.
62- الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص203-206؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص115-117.
63- أبو العرب، المصدر السابق، ص25؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص191-195؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص106-109.
64- أبو العرب، المصدر السابق، ص21؛ علي بن الأثير، اللباب في تهذيب الأنساب، دار صار، بيروت-لبنان، د. ت. ط، ج1، ص ص337-338؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص191-195؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص106-109.
65- علي بن الأثير، أسد الغابة في معرفة الصحابة، تحقيق: علي محمد معوض وعادل أحمد عبد الموجود، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، 1415هـ/1995م، ج2، ص460؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص102-106.
66- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص110؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص198-199.
67- محمد بن إسماعيل البخاري، التاريخ الكبير، دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد – الدكن، د. ت. ط، ج8، ص33؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص110.
68-أحمد بن علي بن حجر، تهذيب التهذيب، مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، 1326هـ، ج2، ص171؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص209.
69-أبو العرب، المصدر السابق، ص20؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص117-118.

70-البخاري، التاريخ الكبير، ج2، ص89؛ ابن حجر، المصدر السابق، ج1، ص ص483-484؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص211-212.
71- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص114؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص202.
72- أبو العرب، المصدر السابق، ص27؛ المالكي، المصدر السابق، ج1، ص9.
73- المالكي، المصدر السابق، ج1، ص ص176-187؛ اليحصبي، المصدر السابق، ج3، ص ص102-112.
74- اليحصبي، المصدر السابق، ج3، ص ص87-101؛ الدباغ، المصدر السابق، ج1، ص ص264-278.
75- أبو العرب، المصدر السابق، ص27 ص33-34؛ اليحصبي، المصدر السابق، ج3، ص ص68-79.